النص الأدبي
بين فتنة القراءة وبركانية المعنى

أ. لحسن دحـــــو
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

TEXTE LITTERAIRE :
entre lecture séditieuse et explosion du sens

Notre modeste papier vise essentiellement à interroger les mécanismes pratiques de la lecture du texte littéraire appréhendé dans sa double dimension linguistique et langagière étendue aux enjeux majeurs de la mondialisation, aux défis qu'elle pose, aux paris auxquels elle donne lieu, avec le souci primordial de se concilier le réel afin de le changer irrémédiablement et non de le justifier ou de le soutenir.

C'est également dans cet esprit de changement des pratiques que notre intervention se donne comme finalité d'approcher l'interaction pendulaire entre le texte et son lecteur pour lesquels l'influence dialectique revêt un aspect existentiel transformateur des tensions fondant cette même interaction. Le lecteur devient alors le signe de la métamorphose du texte soumis à l'extimité sociohistorique dont le sens esthétique, le goût et les pensées préludent au dialogue des esprits dans un univers de signes tourmenté parti à la redécouverte des valeurs primitives de l'humain embastillé dans un monde de plus en plus menacé par l'inertie, la violence, le racisme et le chauvinisme.

Néanmoins, il est à craindre que cette ambition de la lecture ne dépende de la nature propre du texte littéraire, de ses fonctions et de son statut social et juridique au sein de la communauté ; de l'idéologie des masses et de la prolifération des théories critiques

استهلال تأطيري:

الأدب فعالية إنسانية، وتجربة صادقة تبدأ من الذات ثم تتداح وتتسع إلى أن تشمل الكون؛ تروم بناء الإنسان الذي يحظى بفرصة محاكمة الأشياء من منظوره وفهمه الغني للحياة بما يخدم قضـــايا الإنســـانية ويثـــري الفكـــر الإنساني، وينهض بالمجتمع البشري إلى ما يسمو به على النفعية المادية المتعصبة والعنصرية المتعالية، ويحـــرره من ربقة تقنية العصر وماديته؛ إذ ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان، ولا بالعلم وحده ينهض، وإنمـــا يكـــون عيشـــه الكريم ونهوضه الراقي بتصحيح مسار العقل، وتلبية احتياجات الروح، وإيجاد المعادل المعنوي للتقدم العلمـــي. ولا سبيل إلى التأتي إلى ذلك إلا من طريق الثقافة والفن، والأدب أهم روافد الثقافة وأعلى ضروب الفن.

من هنا كان الأدب بمظهره الإبداعي الذي يشكل خطاب المعرفة، و بنزعته الإنسانية –بكل ما تعنيه كلمـــة "**الإنسانية**" من معنى الامتداد في الزمان والمكان –الموئل الذي تلوذ إليه الشعوب والأمم، والباب الذي تدلف منـــه؛

لتطلّ من خلاله، بذكاء، على نفسها وعلى الآخرين دون تحيّز أو تعصب . فمفعول سحر صناعة الكلمة وعالمها الذي انتظم مع الزمن؛ جعل من الأدب **فعل حياة ووجود**[1] يجمع شتات الإنسانية، ويجسّر الهوة التي ما فتئت الحروب والصراعات تزيد في تعميقها وتوسيعها بين الشعوب؛ ليعيد وصل ما انقطع، وإحياء صلات القربى، والجوار تحت مظلة الانفتاح والتلاقح، بعد أن رانت على جوهر الإنسان رعونة النفس، وما استتبعها من أدران تأباها الفطرة السليمة ويعافها الذوق المهذب.

هكذا فهمت الشعوب الواعية الأدب بوصفه كائنا زئبقيا متعدد المظاهر يصوّر الفكر في حياة الإنسان[2]، فيقول خطابا وشيئا آخر هو تماما ما يؤصل وعي الشعوب بذواتها، ويختبرها في الآن ذاته، فجعلته مهماز التفوق؛ لأنها أدركت أن في الأدب كما في الحياة تجارب أصيلة تفصح عن الإنسان و تسوسه، و تكشف عن احتياجات لا تغني في سدّها الأمور المادية. فتبدّت هذه التجارب في صورة نصوص أمّن لها توسّلها باللغة الطبيعية فرادتها عن باقي الفنون الجميلة، ومكّنها جمالها المطبوع من إثارة احتفاء القارئ بها على الرغم من تفاوت الإنشاء فيها طولا وقصرا، وقد انبجست منها حلاوة أعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب؛ لأن اللغة الطبيعية ضمنت لها سر الخلود بعد أن منحتها إكسير الأدبية.

وإذا كانت كل الفنون الجميلة –في اتجاهها إلى المتلقي– تجتهد بأدواتها (نغمة في الموسيقى، وخط ولون في الرسم، وحركة في الرقص...) في أن تخلق لديه حالة شعورية خاصة، أو لتخلع عليه جوا نفسيا معينا، أو لتترك خياله يرسم ما شاء من صور، فإن الأدب أكثرها مراعاة للمتلقي، واهتماما به واحتشادا له في عملية التوصيل الأدبي حتى **تحدُثَ متعة الكشف، وتتحقق لحظة التنوير**[3] في أثناء تعالق القارئ والنص.

وليس خافيا على أهل الاختصاص أن الظاهرة الأدبية تقوم على أركان ثلاثة: المبدع، والنص، والقارئ، غير أن الحديث عن الإحداثية (نص/ قارئ) في فضاء جماليات الإبداع وجماليات التلقي، هو حديث ذو شجون، لا يكاد يأخذ فيه الدارس إلا فتح له مجالا واسعا من التأملات؛ نظرا لتعدد التصورات التي حملها كل اتجاه نقدي عن قراءة النص الأدبي ضمن المسار التاريخي للدراسة الأدبية.

القارئ وكيمياء النص الأدبي:

إن النص الأدبي كينونة لغوية لا تتوقف عن أن تصير، ووجود كتابي لا يكف عن الولادة في كتابات أخرى كثيرة لا تتناهى[4]، لذا لم يعد ينظر إليه بعدّه تعبيرا عن مقصدية مبدعة لا غير، وإنما أصبح يتحدد من خلال تفاعله مع قراء مدركين يحررونه من قيد علاماته، ويستخرجون مكتنزاته و نفائس معانيه من منجم ألفاظه.

وبموجب ذلك أصبحت النظرية الأدبية اليوم تتجه إلى الاهتمام بالتواصل الأدبي وضبط ميكانيزماته مسلِّمة بأن النص الأدبي نصان: **نص موجود تقوله لغته، ونص غائب يقوله قارئ منتظر**[5]، إذ ليس في ميسور أي نص أن يستمد حضوره إلا بالقدر الذي يخرجه من حيز الإمكان إلى حيز الواقع، و يتحقق فيه المعنى بحدث القراءة المثقفة والتلقي؛ كيلا يظل وجوده المتعين مبهما. ولا عجب في ذلك، فهو يقوم في القراءة أولا قبل أن يقوم في مكتوبه.

وانطلاقا من هذه الرؤية كان النص الأدبي مدعوا إلى مشاغبة القارئ إقبالا وإدبارا، و فتنته بالإغراء تارة و بالتمنّع في غنج ودلال تارة أخرى، إلى الحدالذي يثير فيه انفعالا يكون كفيلا بتحريك فضوله إلى محادثة النص، و

تغذية شوقه إلى التعرف عما استتر فيه من معنى، واستكن فيه من دلالات... فيسائله، ويحاوره بذكاء حتى إذا ما شاع الأنس بينهما و تأمل مليا فيما جاء مبثوثا في أعطاف حديثه (شعريته)،انسرب فيه معايشة وتفاعلا يصنع فيه (القارئ) صنيع الغيث بالتربة، ويتحرّك تأويليا بمقدار تحرّك النص توليديا.

إن كيمياء النص الأدبي تنشأ من التوازن المحكم بين علاقاته الداخلية والعلاقات الخارجية، ومن فاعليته في تقديم حمولته الغائرة تقديما يبهر الذات القارئة و يبدهها بها في آن واحد، فيبعثها على الارتياح والاهتزاز، والاستحسان؛ بالقدر الذي يومئ بفضل بعدالنص الافتراضي في اصطناع سياق يتكفل بإنشاء وضع تفاعلي يستدعي إعادة بناء الذات القارئة له، بما يحقق اجتماع متعة النص بلذة القراءة .

ولعل هذا، بلا شك، يرفع من مقداراللذة والسرور في الذات القارئة فلا تمتلك إزاء هذه الكيمياء أن تظل محتفظة بكينونتها مستقلة عن النص الأدبي، أو واقفة على بعد مسافة منه، بل تجد نفسها مستوعبة فيه مشمولة به، حتى إنها لا تملك من أمر نفسها شيئا، سوى أن تستجيب لجاذبيته، وهو يرشح بعلامات منصوبة تشي بجماله، فتحاول التواصل معه بوعي استبطانا وتعمقا؛ حتى تتفقّد سبب ما يجعل منه حمّال أوجه، وتستحضر ما يعتري هذه الذات من أحوال مختلفة تؤشر إلى مفعول هذه الكيمياء.

إن العلاقة التي تُحدثها كيمياء النص الأدبي بين القارئ والنص أكثر ما تكون في وجودها شبها بمفعول الضوء في قطعة من الكريستال، يشف عنها الإنجاز اللغوي الذي تصير فيه القراءة فعلا لسانيا لفاعلين هما:

1- النص فاعل مفرد متعدد:

* فهو مفرد؛ لأنه بنية سطحية، يقيمها نظام صوتي به يفصح عن نفسه، ونظام نحوي تركيبي به يكشف المكتوب عن نموذج وجوده.
* وهو متعدد؛ لأنه بنية عميقة، يقيمها نظام دلالي يرسمها المحتمل والممكن، ويسمح بتأويلها وإعادة صياغتها.

2- القارئ فاعل شاهد:

إذ يتعامل مع النص من خلال كينونته اللغوية، يرى فيه ميدانا لنظم كثيرة ثقافية، وسياسية، واقتصادية، يقرؤها على أنها وقائع نصية ويجعلها جزءا من إمكان كتابي لا يتناهى .

على هذا النحو، يقدّم النص الأدبي نفسه بوصفه تفاعلا بين "**فعل لساني**" و"**عمل لغوي**"، تكمن حقيقته في انسجامه مع نفسه وتناميه وفق قوانينه وصياغاته، و **في قدرة القارئ على رتق ثقوبه، و ردم فجواته**[6].

واعتبارا لهذه العلاقة التكاملية التي يتوقف عليها وجود النص الأدبي، يصبح تحقق مقاصد عملية التواصل الأدبي مرهونا، من جهة، بمستوى العلاقة التبادلية ودرجتها بين طرفي المعادلة الإبداعية : النص، والقارئ، ومتوقفا،من جهة ثانية، على إمكانية أن (يضاهي/ يناظر) جهدالقارئ في تأمل النص وتذوقه مكابدة المبدع في إنشاء لغته الترميزية و بنائه التخييلي، إذ " **... من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى و بالمزية أولى، فكان موقعه في النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضن وأشغف**" [7].

وإذا كان جوهر النص الأدبي بما هو معطى حسي ومعنوي كالدرة الثمينة لا تعلو درجتها ولا تغلو قيمتها، ما لم يكن المستخرج لها بصيرا بشأنها، والراغب فيها خبيرا بمكانها[8]، فإن هذا يعني أن النص الأدبي ليس هو النص الذي تمنح قراءته القارئ أكبر مقدار من المتعة واللذة، ولكنه النص الذي كلما عاد إلى قراءته القارئ العارف بأدواته، الخبير في عمله، أثار فيه رغبة في الاستزادة، وخلع عليه أكبر مقدار من المتعة واللذة؛ فيظل فيه فاعلا.

النص الأدبي وبركانية المعنى:

إن النص الأدبي نص مفتوح على عناصره الإشارية المتحركة، ومتروك للقارئ أن يجرب فيه لغته، وثقافته ومنهجه بحثا عن معنى يحتمله يكون ناسخا له لا نسخة عنه.

وإذا كان كل نص أدبي يحمل في ذاته توقع قراءته ويرسم ملامح قارئه الضمني، فإن رسم ملامح هذا القارئ قد يساهم في كشف مكنون النص بالدرجة نفسها التي يساهم فيها رسم ملامح المتهم في توجيه رجال الشرطة إلى حل لغز الجريمة.

وهكذا، فإن مصير النص يتقرر، ضمن هذا المنظور، تبعا لطبيعة القارئ وتجاوبه، وقدرته على مجاراة النص في تشوفاته؛ فيبوحَ له بأسراره، ويفضي إليه بمغاليقه أملا في أن يبرهن له عن أدبيته التي تؤكدها قابليته لتعددالقراءات، وهو يأمل فيه (القارئ) أن يكون فاعلا، وألاّ ينظر إلى القراءة على أنها محض انفعال، بل فعل خلاّق يعوّل فيه على خبرته اللغوية و ثقافته الأدبية، وعلى أفق تجربته، وعلى ذوقه السليم المحصّن بالمعرفة التي يجب أن تماثل "**... معرفة الصانع الحاذق الذي يعلم كل خيط من الإبريسم في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع**"[9] .

بهذا المعنى، تصبح القراءة دمجا لوعي القارئ الخبير بمجرى النص أي تفاعلا بين فعل وبنية، يتجاوز ذلك المسح البصري الساذج إلى تحرير النص من نهائيته ويقينيته، وفتحه للتأويل والقراءة المستمرة بحثا عن معان محتملة، تكون في كل مرة شاهدانبعاثه وميلاده الجديد.

إن بركانية المعنى تنشأ عادة من اعتماد النص الأدبي على استراتيجيات اللغة ونظمها في تحويل ما يتضمنه إلى كائنات كلامية، واستراتيجيات القارئ في قراءة النص قراءة تنافذية تحاول تأليف نص جديد مواز للنص المنجز فنيا، بفعل التقاء أفق تجربته بأفق انتظار النص، فيأخذ فعل القراءة بعديه التداولي والمرجعي؛ لأن الأمر يتعلق بقابلية للفهم وبإدراك صحيح، على اعتبار أن النص هو ما يتشكل في فهم القارئ ووعيه، ومن ثمَّ يغدو فعل القراءة عملية استكشاف، وتعارف، وتحاور، وتحريك للإنتاجية والإبداع من خلال التفاعل التوليدي بين إمكانيات النص في المراوغة بسراب المعنى، وقدرات القارئ في الوصول إلى حيث يختفي اللب المعنوي الزئبقي خلف أغلفة الإيحاء، والإيجاز، وخداع الأشكال.

الخاتمة:

وفي الختام، يمكن القول: إن النص الأدبي رؤية للذات في علاقتها مع الخارج محمولة برغبة خلق القارئ الذي يتجه نحوه؛ فيقوده إلى متاهته من دون أن يزوّده بما يفصح عن هدفه أو يلغي عناء القراءة. إنه فعل الكتابة الذي يحمل وزنه بما تتوسّل به لغته الشفافة المكثفة من حيل أسلوبية، وتقنيات فنية تحجب مستويات معناه وتطورها

داخله من دون أن تحوّله إلى طلاسم وأحجيات؛ مما يجعل التعامل معه تعاملا غير ميسور للجميع، إذ يُحتاج فيه إلى غوص وتأمل، وإعمال فكر، وإيقاظ خاطر، مرفود ذلك كله باستعداد ثقافي، وذوق نقدي، وملكة مدربة مصقولة؛ حتى تتبدّد الحجب، ويؤول الأمر إلى الجلاء والانكشاف بالقراءة الواعية والفهم العميق، وبشيء قليل أو كثير من التأمل والنظر.

لكن واقع الحال يقرّ بأن مثل هذه النصوص الأدبية قد عزّ، وإن وُجدت فقد أحوجها أن تعثر على طِلبتها، أن تجد القارئ الخبير المتمرّس الذي يأنس ويفرح إذا استطاع، بعد جهد، أن يحصل على (معنى/معان) يستحق هذا الجهدالذي بذله.

فاليوم،حال النصوص الأدبية العربية في عباب الحداثة يغني عن سؤالها، فهي شاحبة تعاني من "**أنيميا أدبية حادة**"، تستدعي إنعاشها بضخ دماء جديدة فيها تعيد لها نضارتها، كما بات القارئ العربي بحاجة، ملحة وأكيدة،إلى تطعيمه بأمصال قوية تدفع عنه أدواء الوهن، والخمول، وتدفعه إلى القراءة، والتحرك صعودا إلى الأمام بدلا من التحرك في مكانه على محيط دائرة.

وأحسب، في هذا المقام، بأن الإشارة لا تكفي ولا تغني عن ضرب المثل، فمما يُروى في سير الأقدمين أن فلاحا عجوزا عجمت عوده السنون، سئل ذات مرة عن سبب ضعف إنتاجية أشجار حديقته التي كلأها بعنايته وأحاطها باهتمامه، فأجاب بسذاجة و بساطة لا تخلو من دقة تشخيص : "**إن النحل قليل!**".

ولعل في هذه الإجابة كفاية عن السؤال، **فما أحوج القارئ اليوم إلى نص أدبي يفتنه كما الوردة الجميلة ؟!، وما أحوج النص الوردة إلى قارئ نحلة يتغذى منه و يلقّحه؟!.**

الهوامش والإحالات:

1. وجيه فانوس، **دراسات في حركية الفكر والأدب**،دار الفكر اللبناني،بيروت،ط1،1991م،ص ه(المقدمة).
2. إيمانويل فريس وبرنار موراليس، **قضايا أدبية " آفاق جديدة في نظرية الأدب**"،مجلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،ع: 300، فبراير2004م، ص15.
3. أحمد هيكل،**في الأدب واللغة**،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،(د،ط)،1998، ص24.
4. منذر عياشي، **الكتابة الثانية وفاتحة المتعة**، الكركز الثقافي المغربي،الدار البيضاء،ط1، 1998م، ص8.
5. منذر عياشي، **مقالات في الأسلوبية**، اتحاد الكتاب العرب،دمشق،ط1، 1980م، ص144
6. عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه " دراسة في سلطة النص**"، مجلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،ع: 298، نوفمبر2003م، ص99.
7. عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1983م، ص37.
8. ينظر: السكاكي، **مفتاح العلوم**، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط1، 1937م، ص98.
9. عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، تح محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1984م، ص126.